من أجل الصورة الأبهى

ملاك خالد

أن تكون ناشطًا

أن تكون ناشطًا في أيام السِّلْم يعني أنّك ستكون بين أنشط الناس في أيام الحرب، حيث طوفانُ ما ينبغي فعلُه يعاجِلُ الجميعَ من كلّ حدبٍ وصوب

التجارب متنوّعة وغنية ومترابطة. بعضُها فرديّ، وبعضُها جماعيّ، وبعضُها انتهى مع توقف العمليات العسكرية يوم ١٤ آب الماضي، وبعضُها يستمرّ إلى اليوم وإنْ بأشكالٍ أخرى.

من قرية النزوح المؤقتة «بيصور» إلى بيروت، وعودةً إلى صور، لم يمرّ يوم حتى الآن لم أكن فيه ـ ومثلي كثيرون ـ منشغلين بغيرِ عملٍ وواجبٍ في الوقت عينه. وعلى ما أمل، فإنّ هذا الالتزام العالي، الذي أظْهره أفرادٌ ومؤسساتٌ ونوادٍ وجمعياتٌ في لبنان وكلّ العالم، سوف يستمرّ حتى احتواءِ آثارِ هذه الحرب وتطويقِ معظم الآثار المحتملة لكلّ حرب قادمة.

ولكوني معلّمةَ أطفال، فقد كان من الطبيعي أن أفكّر في العمل مع الأطفال بشكل أساسي، وذلك بالتوازي مع العمل مع النازحين وكنت أعي أنّه لا ينبغي أن تَقتل الحربُ الإنسانَ فينا لذا، كان لا بدّ أن نعمل من أجل أن يبقى لهذا الإنسان، فينا وفي أطفالنا، وجودُه اليوميُّ عبر نشاط وقصة وأغنية تَرْسم ضحكةً، فنجعلُ الخوفَ أمرًا قابلاً لأن نفهمَه (أهلاً وأطفالاً) ونتعاملَ معه بشكلٍ أكثر مرونةً وأقلّ شعورًا بالذنب

هدفنا كان أن نرافق الأطفالَ في هذه المرحلة الصعبة ليفهموا ولو قليلاً ما يدور حولهم، وليدركوا أنّ ما يحسُّونه طبيعيٌّ ومنطقيٌّ لكونه ردّةَ فعل على ظروفٍ لاطبيعيةٍ ولامنطقيةٍ عصفتْ بحياتهم

وإلى اليوم، لا يدعّي أحدٌ منّا، نحن العاملين في مجال أنشطة الأطفال، أنّنا نقدّم أيّ نوع من «العلاج» أو «التعليم.» كلّ ما نقوم به هو محاولةُ خلقِ أجواء من الثقة والأمان تُعيننا على الوصول إلى هدفنا المذكور أعلاه.

هكذا تكون ناشطًا، ولكنْ ماذا عن الأنشط؟

الأنشط هو ما فعلناه كمجموعة تبلورتْ باسم «حملة المقاومة المدنية،» وبأهدافٍ وأدوارٍ ينصبُّ جُلّ همّها على بناءِ علاقاتٍ مع الناس، بحيث تتضافر الجهودُ من أجل دعم خيار المقاومة بشقّها المدني. ففي ممارسة هذا الخيار خلاصُنا الجمعي من سطوةِ ما تنوء بها بلادُنا من هيمنات ومحسوبيات، وما يفيض عن مساحتها من زواريبَ سياسيةٍ و«مصلحيةٍ» لا تَخْدم إلاّ فئاتٍ قليلةً.

بدأنا، لبنانيين من مختلف المناطق والطوائف والمشارب السياسية في لبنان، وأصدقاءَ عربًا وأجانب متضامنين مع لبنان، نخطّط للانطلاق جنوبًا في قافلةِ تضامنٍ وإغاثةٍ لأهلنا الصامدين على تخوم المواجهة

توالت الاجتماعاتُ والاتصالاتُ طوال عشرة أيام، وتكثّفت الجهود وفي ٢٠٠٦/٨/١٢ انطلقتْ قافلةٌ من ٥٠ سيارة بمواكبة إعلامية متنوّعة، رافعةً علمَ لبنان، ومحمّلةً بحصص غذائية وأدوية للصامدين من أهلنا. كان الهدف هو الوصول إلى أبعدِ نقطةٍ يمكن الوصولُ إليها لنقول على طريقتنا «لا» بوجه عدوّنا الذي كان يحاول أن يَفْرض علينا التحرُّكَ بحسبِ ما يَسْمح به ويَمْنع على تراب وطننا.

وأردنا أن نقول لأنفسنا ـ نحن أهل هذا الوطن المثقوب بكلّ ألوان الاختلافات والمتوحِّد في كونه هدفًا دائمًا لأطماع الصهاينة فيه ـ إنّنا كلّنا لبنانُ حين تريد إسرائيلُ أن تَرْسم حدودًا جغرافيةً بين لبنان والجنوب: فالجنوب لبنان، والضاحية وبعلبك وبيروت وجعيتا وفاريا وعكّار وكلُّ حبّةِ ترابٍ هي كلُّ لبنان

لم تكن إسرائيل هي مَنْ منعتْ قافلتَنا من التقدُّم جنوبًا، بل كانت الحكومة اللبنانية هي مَنْ مَنَعَها من المضيّ لتسجيل رسالةٍ سياسيةٍ عاليةِ المستوى في وجه الصهاينة والعالم الفاقدِ حواسّه

عادت القافلة إلى بيروت محبطين كنّا وغاضبين، ولكنّه لم يكن وقتَ الوقوف في وجه حكومتنا، فنحن في حربٍ يريد فيها عدوُّنا

كيرستن شايد

محمد صفيّ الدين (من حملة المقاومة المدنية) أمام مخلّفات الهمجية الإسرائيلية

ـ الذي انهزم عسكريّاً باتّحادنا شعبًا ومقاومة ـ أن ينتصر فيها سياسيّاً بانشقاقنا شعبًا عن حكومة.

لم يكن ممكنًا أن تضيعَ هباءً الجهودُ التي وُظِّفتْ لإنجاح القافلة من قِبل كلِّ الفسيفساء العجيبة التي اجتمعتْ لنكون معًا في ذلك السبت الذي سبق وقف العمليات العسكرية بيومَيْن فحسب

وهذه الفسيفساء من لبنانيين وعرب وأجانب لم يكن لها أن تكونَ ما هي عليه اليومَ دون خلافاتٍ ونقاشاتٍ حادّةٍ وطويلةٍ وعميقة. واتفقنا أساسًا أن لا نضيِّع فرصةَ اجتماعنا هذه، وفكّرنا معًا بالخطوة التالية. وكان أن انطلقنا على الأرض فعليّاً بعد ١٤ آب جنوبًا

رحنا نزور قرًى لم يصلْها قبلَنا أيٌّ من الهيئات الدولية (التي شَرَحتْ لنا أسبابًا تتعلّق بحاجتها إلى ضمانة انتشار قوات اليونيفيل لتمكّن تلك الهيئات من الدخول إلى قرى المواجهة).

نسأل البلديةَ عن حاجات هذه القرية أو تلك. نحادث الناسَ. نعزّيهم ونعزّي أنفسَنا. نحاول قدرَ الإمكان أن نؤمّن ما نستطيعه من متطلّبات الحياة في هذه القرى؛ فإمكانياتنا قليلة وتتمثّل في تبرُّعاتِ أصدقاء وداعمين من لبنان وخارجه

ومع ذلك، أَنظُر اليومَ إلى ما فعلناه بإمكاناتنا القليلة فأشعر بالفخر والتحفُّز لإنجاز المزيد

اليومَ علاقاتُنا بالقرى التي عملنا فيها أقوى وأوثق. نزورهم، نقيم نشاطات الأطفال أسبوعيّاً معهم، ننظّم لقاءاتٍ حول «مقاطعة داعمي إسرائيل،» ونَلْمح في صلابتهم إصرارًا على المعرفة والتعاون كي نَهْزم إسرائيل عبر داعميها اقتصاديّاً بعدما تأكّدتْ هزيمتُها العسكرية مرتيْن عاميْ ٢٠٠٠ و٢٠٠٦

تحدّينا الأكبر هو أن نحافظَ على علاقاتنا هذه وننمّيها ونشبكها مع علاقاتنا السابقة في مختلف مناطق لبنان كي نسهمَ جميعًا في بناء الوطن الحقيقي: إنّه الوطن الذي ارتفع من أجل أبهى صورةٍ له في الأرض اليوم أكثرُ من ١٣٥٠ شهيدًا إلى سماء الحرية.

صور

ملاك خالد

أستاذة مدرسة وناشطة في «حملة المقاومة المدنية»